# الفصل الثالث

# الجيش في عصور التفكك والانهيار

بالرغم من أن الجيش الإسلامي قد أسلم الدولة الإسلامية ومعها حضارتها الزاهرة لمصير مؤلم كانت بدايته تفككاً وانهياراً لم يسبق له مثيل ، توزعت على أثره إلي دويلات متفرقة وربما متناحرة ، إلا أن جيوش تلك الدويلات جاهدت وكافحت في جلد وعناء من أجل الحفاظ على جسد تلك الدولة المثخن بالجراح ، تذب عنه الذين تقاطروا عليه ، وكان ذلك أقصى ما يمكن أن تقدمه للحضارة الإسلامية في ذلك الوقت ، ونجد أنفسنا مطالبين بالتصدي لدراسة الجيش أو بعبارة أكثر دقة للجيوش الإسلامية في ذلك العصر ، لنواصل المتابعة التاريخية للجيش في الحضارة الإسلامية ، ونقف على طبيعة تلك الجيوش وأهدافها ، وسيتم ذلك من خلال المباحث الثلاثة التالية :

**المبحث الأول : خصائص الجيوش الإسلامية في عصور التفكك والانهيار .**

**المبحث الثاني : تنظيم الجيوش الإسلامية في عصور التفكك والانهيار .**

**المبحث الثالث : الجيوش الإسلامية والحضارة الإسلامية في فترة التفكك والانهيار .**

## المبحث الأول

## خصائص الجيوش الإسلامية في عصور التفكك والانهيار

اتسمت الجيوش الإسلامية التي تأسست منذ نهاية العصر العباسي الأول ، وبداية العصر العباسي الثاني وبدأت تعلن عن استقلالها بولاياتها ، اتسمت تلك الجيوش بمجموعة من القواسم المشتركة التي جعلت منها إحدى خصائص مرحلة التفكك والانهيار التي شهدتها الدولة الإسلامية في تاريخها ، ويمكن تناول أهم تلك الخصائص من خلال الآتي :

### أولاً : الطابع الشخصي للجيوش :

تمثلت أول وأهم خصائص الجيوش الإسلامية التي تأسست في مرحلة التفكك والانهيار في كون تلك الجيوش كانت تابعة لأشخاص تولوا تشكيلها . وهم حكام الولايات وكان ولاء هذه الجيوش في المعتاد لهؤلاء الأشخاص ، كما أن هدف تلك الجيوش هو تحقيق رغبات مؤسسيها التي بدأت في الرغبة في الاستقلال عن الدولة العباسية ، ثم في التوسع على حساب الولايات الأخرى وترسيخ الاستقلال الذاتي .

إن معنى ما تقدم أن الوازع القومي العنصري لم يكن قد تبلور بعد لدى العناصر المنضوية تحت لواء الدولة الإسلامية ، كما أن ذلك الوازع لم يكن قد تجسد في رغبة تنزع نحو الاستقلال برقعة من الجغرافيا تحدد معالم الكيان وتبلور طابعه ، فالجيوش المذكورة كانت تنسب إلي الأشخاص أو الأسر الحاكمة للولايات .

### ثانياً : التناحر بين الجيوش الإسلامية المتعددة :

من خصائص تلك الجيوش أنها كانت في معظم الأحوال متناحرة ، فقد تعددت اعتداءات الولايات الإسلامية على بعضها ، إما بسبب خلافات شخصية ، وإما بسبب الادعاءات

والمطالبات التي أطلقها الولاة للسيطرة على أقاليم أو مناطق متنازع عليها ، ناهيك عن الصراعات التي كانت تتم داخل الولايات من أجل الحكم ، وكانت هذه الصراعات يشقيها غالباً ما تفت في عضد هذه الجيوش وتصيبها بالوهن ، ويمكن الزعم بأنها يمكن أن تقويها وتدفع بالحكام إلي الاهتمام بها لتحقيق مآربهم ، إلاّ أن الثابت أن كلفة تلك الجيوش كانت تتحملها الشعوب الإسلامية في شكل ضرائب .

## ثالثاً : عناصر الجيوش الإسلامية :

كان قوام الجيوش الإسلامية في بداية تأسيسها المرتزقة من عناصر عديدة ، وبعد انهيار الخلافة العباسية بدأت تلك الجيوش تعتمد في عناصرها البشرية على أبناء الولايات من العرب وغيرهم ، فالفاطميون في مصر كانت عناصر جيشهم مكونة من المغاربة من قبائل البربر ومن عبيد الشراء السودانيين والعرب والأرمن والأكراد والديلم والروم والفرنج والصقالبة ، وفي زمن الأيوبيين في مصر والشام قضى صلاح الدين على الصقالبة واستخدم بدلاً منهم عسكراً من الأكراد والأتراك والعرب ، أما المماليك فقد اعتمدوا على الرقيق من الأتراك والجركس في الجهاد ضد الصليبيين .

## رابعاً : الجيوش الإسلامية والدفاع عن أجزاء الدولة :

بالرغم مما تقدم بخصوص سمات الجيوش الإسلامية في فترة التفكك والانهيار ، إلا أن ثمة حقيقة جديرة بالذكر والاعتبار معاً وهي أن الجيوش الإسلامية المتعددة في الولايات الإسلامية لم تكن تتوانى في الدفاع عن أجزاء الدولة الإسلامية حتى دونما يطلب منها ذلك ، وتعود هذه الحقيقة إلي رسوخ الرابطة الإسلامية وسموها على النزعات الانفصالية التي حدت بالولاة إلي الاستقلال بولاياتهم وتأسيس الجيوش الخاصة بهم ، وتتجلى هذه الحقيقة عندما تقدمت الجيوش الإسلامية من أقاليم وولايات مختلفة للجهاد ضد

الصليبيين من العراق والشام ومصر ، وكان للأسطول الموحدي الذي أرسل منه يعقوب المنصور أمير الموحدين ١٨٠ سفينة حربية لنجدة صلاح الدين الأيوبي ومنع الصليبيين من مهاجمة سواحل الشام دوره المهم في الدفاع عن الشام ضد الخطر الصليبي ، كما تجمعت عناصر من جيوش عديدة للوقوف في وجه المغول حتى تم القضاء عليهم في عين جالوت .

## المبحث الثاني

## تنظيم الجيوش الإسلامية في عصور التفكك والانهيار

في هذه الجزئية ننتقل إلي البحث في تنظيم الجيوش الإسلامية في عصور التفكك والانهيار ، ومعلوم منذ البداية أن كل جيش كان يتسم في تنظيمه بخصوصية تميزه عن غيره من الجيوش ، ولكننا سنحاول في هذا الموضع تتبع القواسم المشتركة لهذه الجيوش ، لأننا بصدد استنباط مؤشرات عامة تتعلق بعلاقة الجيوش في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الأمة الإسلامية بالحضارة الإسلامية ، وليس من تبعات هذه الدراسة الخوض في سرد وتفصيل الوقائع والأحداث والتنظيمات ، ونتطرق إلي بحث تنظيم الجيوش الإسلامية في خطوطه العريضة من خلال ما يلي :

### أولاً : الجيوش الإسلامية والظاهرة الصراعية :

الجيش دائماً هو رمز القوة والصراع ، وهذه خصيصة من خصيّات الجيوش في كافة الأماكن وجميع الأزمنة ، والجيش لا يخوض الصراع لذاته ، ولكن يصبو إلي تحقيق أهداف ومقاصد يحددها قبل خوض ذلك الصراع حتى ولو كان يرد اعتداءً ، فقد أزمع قبل الانخراط في الحرب أن يتصدى للعدوان ، ومن ثم يمكن تحديد علاقة الجيوش الإسلامية خلال عصور التفكك والانهيار بالظاهرة الصراعية من خلال الأبعاد التالية :

#### ❖ إدارة الصراع العضوي :

كما ذكرنا مراراً الصراع العضوي هو آخر أشكال الصراع بين الإرادات المتناطحة ، وهو نزال ينتهي بإخضاع أحد الطرفين للآخر أو إنهاء وجوده . وقد ألفت الجيوش الإسلامية منذ تأسيسها إدارة الصراع العضوي مع إرادات عديدة – سنتناولها بعد قليل –

ولم يكن هدف تلك الجيوش إدارة الصراع العضوي كغاية في حد ذاته ، ولكنها هدفت من وراء ذلك الصراع إلي تحقيق أهداف اختلفت باختلاف طرف الصراع ، ومن هذه الجيوش من أدارت الصراع العضوي بحرفية واقتدار ، ومنها من لم تؤده بإتقان ، وكان ذلك يعود إلي طبيعة تلك الجيوش ، والهدف من تأسيسها ، وخبرة الأشخاص التي أسستها ، فجيش صلاح الدين الأيوبي كان من أقدر الجيوش الإسلامية على إدارة الصراع العضوي ، كذلك كان جيش المماليك الذي خاض الصراع العضوي مع المغول في عين جالوت .. الخ .

❖ إخضاع إرادة الآخر :

إرادة الآخر هي الطرف الثاني المستهدف النهائي من إدارة الصراع العضوي ، وتظل هذه الإرادة هدفاً منشوداً إلي أن تسلّم للإرادة الأولى ، أو ينتهي وجودها الفعّال في إدارة الصراع قهراً وجبراً ، وقد تعددت وتنوعت الإرادات التي تصارعت معها عضوياً الجيوش الإسلامية في عصور التفكك والانهيار .

فمنذ الشروع في تأسيس تلك الجيوش منذ نهاية العصر العباسي الأول وبداية العصر العباسي الثاني وتلك الجيوش تزمع إدارة الصراع مع الخلافة العباسية في مركز الدولة ، فتكوين تلك الجيوش ذات الاستقلالية كمقدمة للاستقلال بالولايات ، واستغلالاً لضعف الدولة ووهن المركز عن السيطرة على الأطراف ، يعد خروجاً على إرادة الدولة ، وبداية الدخول في صراع معها ، وقد نشبت صراعات من هذا القبيل ، ولكنها كانت تنتهي بإخضاع إرادة الدولة العباسية لإرادة جيوش الأقاليم ، وتسلّم الأولى ولو بشكل غير مباشر بمراد الثانية .

كذلك ألفت الدولة العباسية منذ أن كانت تنظيماً عسكرياً ثورياً قبل قيام الدولة خوض صراع عضوي شرس مع الجيش الأموي ، وانتهت الحركة العباسية إلي إخضاع إرادة

الأمويين لنطقها ، وأقامت دولتها وأزالت الإرادة الأموية من الوجود ، وبعد ذلك ظل الجيش العباسي يتقن إدارة الصراع العضوي ضد الحركات الخارجة على الدولة والمتمردة على الحكم العباسي، وقدّر له النجاح في ذلك ولكن إلي حين .

أيضاً تناطحت إرادات الجيوش الإسلامية في فترة التفكك والانهيار في لقاءات شرسة ومدمرة، منها ما حسم لصالح طرف ضد الآخر ، ومنها ما لم يحسم ، وظل الصراع بكافة أشكاله ، إلا أن شكله العضوي أرجيء لحينه . فكان هناك الصراع التركي الفارسي الشهير الذي لم يحسم بشكل نهائي بالرغم من اللقاءات العضوية المشهورة ، وتعددت الصراعات التي تمت بين جيوش الدويلات الإسلامية ، وبالرغم من شكلها العضوي إلا أنها لم تحسم بتغليب إرادة على أخرى .

وكانت هناك أخيراً الصراعات العضوية التي خاضتها الجيوش الإسلامية مع إرادات قوى خارجية ذات طبيعة نظامية رسمية ، فالصدامات مع البيزنطيين شهيرة في هذا المجال ، وأنهاها العثمانيون بإخضاع إرادة الرومان بشكل نهائي عندما فتحوا القسطنطينية في عام ١٤٥٣ هـ ، والصراع العضوي المتكرر مع إرادة القوى الأوربية الناهضة المتمثلة في الحملات الصليبية أكثر شهرة ، وحسمته معركة حطين لصلحة الطرف الإسلامي ، وعلى نفس المنوال كان الصراع العضوي الذي خاضه الجيش الإسلامي مع الجيش المغولي الذي انتهى وجوده النظامي في معركة عين جالوت .

### ❖ الجيش الإسلامي في عهد التفكك والانهيار والصراع الأممي النظامي :

لم تكن العلاقات بين الأمة الإسلامية والأمم الأخرى لتأخذ طابع الصراع العضوي إلاّ في حالتين : الأولى : الإحالة دون وصول الدعوة الإسلامية إلي الشعوب ، الثانية : الاعتداء على الأمة الإسلامية . وبالرغم من أن الجيوش الإسلامية المتعددة في فترة التفكك والانهيار

قد خاضت صراعات عضوية متنوعة ، إلا أن أهم تلك الصراعات في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الأمة كانت تلك التي خاضتها في إطار علاقاتها النظامية مع الأمم الأخرى التي حاولت الاجتراء عليها والتعدي على مقدساتها وأراضيها ، وقد تعددت هذه الاجتراءات والتعديات في تلك الفترة حيث استشعرت القوى المحيطة بالدولة ضعفها وتفككها ، فالاعتداءات الأوربية في الهجمة الأوربية الأولى التي عُرفت بالحملات الصليبية فرضت على الجيوش الإسلامية خوض الصراع العضوي ، والاجتياح المغولي الهمجي لأجزاء الدولة الإسلامية فرض على جيوشها مرة أخرى خوض الصراع العضوي ، ثم الهجمات الأوربية على الأندلس اضطرت الجيوش الإسلامية في هذه المنطقة إلى الدخول في الصراع العضوي للحفاظ على الوجود في هذه المناطق ، وهكذا بدت العلاقات الأممية النظامية بين الأمة الإسلامية والمجاورين لها في فترة التفكك والانهيار على أنها علاقات صراعية هدفها الحفاظ على كيان الأمة .

### ❖ إقرار الأمن الداخلي :

لعبت جيوش الولايات والأقاليم دوراً مهما في إقرار الأمن الداخلي في تلك الولايات من خلال خوض الصراع العضوي — كما سبق الإيضاح — مع الخصوم والمعارضين والخارجين على أنظمة الحكم فيها ، وكانت تلك الصراعات قوية وشبه دائمة وكانت تنعكس على الشعوب الإسلامية بالتفكك والمعاناة .

### ❖ الدور السياسي للجيش :

يرتبط بما ذكرنا أعلاه أن الجيش الإسلامي في الدويلات الإسلامية لم يكن أداة للدفاع عن الولاية ضد الاعتداءات الخارجية فقط . بل كان إحدى القوى السياسية المهمة التي يستعين بها الحكام في حسم الصراعات السياسية ، وعليه فالجيش كان دائم التدخل في

الحياة السياسية ، وكانت ظاهرة الصراعات العنوية بين جيوش الحكام وجيوش الخصوم السياسيين والمعارضين ظاهرة مألوفة في فترة التفكك والانهيار ، كما لم يكن مستغرباً أن يستولي الجيش على الحكم ثم يُنشئ نظاماً خاصاً به .

### ❖ الجيوش الإسلامية والدفاع عن الدولة ضد العدوان الخارجي :

معظم الصراعات التي خاضتها الجيوش الإسلامية كانت تستهدف تحقيق مآرب شخصية لحكام الولايات ، فيما عدا ما قامت به تلك الجيوش من صراعات عنوية للدفاع عن الدولة الإسلامية ضد العدوان الخارجي ، فقد كان هدف ذلك الصراع هو هدف موضوعي يتبلور في الحفاظ على كيان الأمة ووجودها ، وقد ظل ذلك الهدف حياً في وجدان أبناء الأمة ، بالرغم من تفرقهم في دويلات مستقلة ، وربما متناحرة ، إلي أن سيطرت الدولة العثمانية على معظم تلك الدويلات وبدأت مرحلة جديدة ، سنفرد لها تحليلاً في المبحث التالي .

### ثانياً : الأسرية مكان العصبية القبلية :

أسلفنا أن الدولتين الأموية والعباسية قد برزت فيهما العصبية القبلية بشكل ترك آثاراً واضحة على بنية وشكل نظام الحكم وانتقاله من حاكم إلي آخر ، بل وعلى كافة مفرداته ، كما ترك آثاره كذلك على الجيش في الدولتين ، فظهرت في عناصره وتكويناته فرق تعتمد في تشكيلها على العنصر والقبيلة ، وكان مرد ذلك أن الأمويين والعباسيين قد خرجوا من لب وجوهر القبائل والعصبيات العربية . فكان أمراً طبيعياً — وبالذات عند العرب — أن لا يتجردوا مباشرة ونهائياً من انتماءاتهم العصبية والقبلية ، وهي التي أوصلتهم إلي سُدة الحكم وحافظت على وجودهم فيه . وقد انغمس الأمويون في القبلية العصبية ، ولم ينكروها بل وعوّلوا عليها في حكمهم دون مواربة ، أما العباسيون فبالرغم

من أنهم استفادوا من النزعة القبلية العنصرية منذ بداية ثورتهم وخروجهم على الأمويين ، وفي تشكيل جيشهم الذي بدأ كتنظيم ثوري عسكري ، واستمروا بعد وصولهم إلي الحكم في استدرار عطف القبائل وتأيدها . إلا أنهم كانوا يتحاشون إعلان ذلك ، ويتظاهرون بعكسه . ويجدون غضاضة في إبرازه بشكل صريح، وربما لجأوا إلي ضرب التكتلات القبلية لذر الرماد في العيون ، وتحجيم مخاطرها التي قد ترتد عليهم في وقت ما . وإذا كان ذلك هو شأن العصبية القبلية في الدولتين الأموية والعباسية فقد اختلف الحال في الدويلات الإسلامية التي نشأت في عهد التفكك والانهيار . ففي تلك الدويلات حلت دول الأسر محل العصبية القبلية ، وحكم الأسر بديلا عن الحكم المستند على العصبية القبلية ، وعلى مثل ذلك تأسس الجيش ، فكان في معظمه جيش من المرتزقة والمأجورين . وكان جيش الأسرة الحاكمة فعلاً ، وكان جيش الولاية مجازا ، وإلي الإيضاح :

❖ قيام دويلات الأسر :

نشأت دويلات الأسر في كافة أنحاء الدولة الإسلامية بعد انهيار الخلافة العباسية على أيدي المغول في عام ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م ، وإن كانت تلك الدويلات قد بدأت في الظهور في أقصى الشرق في دويلات آل بويه وآل سلجوق وآل قاجار وآل خوارزم وآل صفار وآل سامان الخ . وفي أقصى الغرب في دويلات الأدارسة والأغالبة والعلويين والمرابطين .. الخ في نهاية العصر العباسي الأول وبداية العصر العباسي الثاني ، إلا أنه في فترة التفكك والانهيار انتشرت دويلات الأسر في كافة أنحاء الدولة الإسلامية ، وعاد ذلك إلي ما يلي :

- الولاة جاءوا من غير الولاية :

كان المتعارف عليه وفق نظام الإدارة المحلية الإسلامي أن يُعين الولاة من مركز الدولة ، وفي العصر العباسي الثاني وقبل انهيار الخلافة العباسية كان ولاة الولايات والأقاليم

معينين من مركز الخلافة . وعندما استقر بهم المقام في ولاياتهم . وانهارت الدولة ، واستقلوا بولاياتهم . لم يكونوا ذوى أصول قبلية أو انتماءات عصبية . فتم تداول حكم تلك الولايات في أسرهم وعرفت الدويلات الإسلامية بأسماء تلك الأسر .

- الولاة الذين جاءوا من الولايات لم يكونوا ينتمون إلي قبائل أو عصبيات .

إلي جانب ما تقدم كان هناك ولاة جاءوا خلال فترة التفكك والانهيار وربما قبيل ذلك من داخل الولايات التي حكموها . ولكن هؤلاء لم ينحدروا من قبائل . ولم يكونوا ذوى أصول عصبية ممتدة . فكونوا أسراً حاكمة . وعرفت الدويلات الإسلامية التي حكموها بأسمائهم أو بأسماء أسرهم . وتوالت الأسر المختلفة على حكم الولايات مثل سوريا ومصر وبلاد المغرب ومثال ذلك في أقصى شرق الدولة الإسلامية .

- معظم ولايات الدولة الإسلامية لم تكن تعرف الانتماءات والنزعات القبلية العصبية :

لعل أشهر مناطق الدولة الإسلامية تشبثاً بالنزعات القبلية والانتماءات العصبية هي بلاد العرب العاربة في شبه الجزيرة العربية والعراق وجزء من بلاد الشام . أما بقية مناطق الدولة فلم تكن تعرف النظام القبلي مثل بلاد فارس ووسط آسيا ومصر والشام وشمال أفريقيا بوصفها مستعمرات رومانية . وعليه فالحكم الذي قام في هذه الولايات في فترة التفكك والانهيار كان ينتمي إلي أشخاص كونوا بدورهم أسراً حاكمة . ولم ينتموا إلي امتدادات قبلية أو أصول عصبية .

- الاستيلاء على الحكم بالقوة .

في فترة التفكك والانهيار ذاعت ظاهرة الاستيلاء على الحكم بالقوة . مرتبطة بصراعات حادة بين أشخاص وأسر تطمح إلي الحكم في ولايات الدولة الإسلامية . ولم يكن أولئك الأشخاص أو تلك الأسر ذات أصول عصبية أو انتماءات قبلية . بل ربما أن منهم من جاء

من خارج الولاية ، وفي هذه الحالات التي تأسس فيها الحكم على الاغتصاب الذي جاء في أعقاب الصراعات . تكونت الدول على أساس أسرى أو شخصي . ولم تكن على أسس قبلية أو عصبية .

– الجيوش تفرض الحكام والأسر الحاكمة :

كانت الجيوش في الولايات الإسلامية في فترة التفكك والانهيار قوة سياسية لا يستهان بها . بل لعلها كانت أشد القوى التي تملك التغيير السياسي العنيف . وكان الجيش دائم التدخل في السياسة والحكم . وكثير الاستيلاء على السلطة . وعندما يستولي على السلطة كان يحتفظ بها أو قد يعهد بها إلي شخص ذى صلة بالعسكرية . وفي كلتا الحالتين يؤول الحكم إلي شخص أو أسرة وتصبح الدولة كذلك منسوبة إلي ذلك الشخص أو تلك الأسرة ، وهكذا كانت الدويلات الإسلامية في فترة التفكك والانهيار .

❖ **تأسيس جيوش الأشخاص والأسر :**

استتبع قيام دويلات الأشخاص والأسر في كافة أرجاء الدولة الإسلامية تأسيس جيوش تحمل نفس الخصائص والسمات . ويمكن إيضاح تلك الخصائص في الآتي :

– لقد تأسست الجيوش في الدويلات الإسلامية سواء في أواخر الدولة العباسية [ العصر العباسي الثاني ] ، أو في فترة التفكك والانهيار مرتبطة بالحكام أو الولاة والأسر الحاكمة . ومن ثم كانت تلك الجيوش جيوش أشخاص تأتمر بأمرها وتعمل لمصلحتها وتحقق أهدافها . فكان ولاء تلك الجيوش لمصلحة الحكام أشخاص وأسر . كما ألقي في روع أفراد تلك الجيوش أنهم يتلقون رواتبهم وعطاءاتهم من شخص الحاكم . وكان هو الذي يملك منح هؤلاء ويملك في ذات الوقت منعهم بل وإعفاءهم نهائياً والإتيان بغيرهم .

– تحددت المهام الأساسية لجيوش الحكام والأسر في الدويلات الإسلامية في مرحلة التفكك والانهيار في الوصول بالحاكم إلي سدة الحكم ، ثم الحفاظ عليه في موقعه ، من خلال قمع خصومه ومعارضيه . وكانت المهمة الأخيرة هي أهم مهام الجيش بعد أن تستقر الأمور للحاكم في موقعه . فكثيراً ما كان الحاكم يعد الجيش إعدادا خاصاً بعد الوصول إلي الحكم ويهيئه للقيام بهذه المهمة التي أصبحت شغله الشاغل وأساس وجوده ، ويرتبط بما تقدم أن الجيش كان ملزماً بالتفاني في هذه المهمة . انطلاقاً من ولائه لشخص الحاكم من ناحية. وتعويلاً على ارتباطه بشخصه من ناحية أخرى ، إذ في حالة زوال الحاكم وإزاحته عن مكانه، يتم إحلال الجيش وتفكيك أوصاله . وتأسيس جيش جديد يرتبط بالحاكم الجديد كما كانت وضعية سابقه .

– كذلك كان من مهام الجيوش الإسلامية في عهد التفكك والانهيار – كما سبق القول – خوض صراعات عضوية لمصلحة الحاكم أو الأسرة الحاكمة مع الدويلات الأخرى . وقد تعددت تلك الصراعات وانحصرت أهدافها في تحقيق طموحات ومآرب شخصية ، وكان يحلو لكل من يخوض تلك الصراعات أن يدّعي أنها من أجل توحيد الأمة ولمّ شملها ، ودائما ما كانت تلك الصراعات تعود بالوبال والخسران على كافة الأطراف المتصارعة .

– ما لا ينبغي أن يُنكر أن بعض هذه الجيوش قد خاضت صراعات عضوية ضد قوى أجنبية كانت تستهدف تمزيق الأمة والنيل من كرامتها ، وقد أبلت هذه الجيوش بلاءً حسناً ، ونافحت عن الدولة الإسلامية بصدق وإخلاص ، فجيش الناصر صلاح الدين كان في مقدمة تلك الجيوش وكذا جيش المماليك ، فالأول تصدى للحملات الصليبية والثاني تصدى للمغول .

وكان هناك جيوش الأمويين في الأندلس . ولكن الأخيرة لم يقدّر لها الصمود في وجه الضغوط العاتية التي انبعثت من القوى المتعددة المحلية والخارجية مستهدفة الوجود الإسلامي في شبه جزيرة أيبريا [ الأندلس ] .

## ثالثاً : الاستنفار في الجيوش الإسلامية في فترة التفكك والانهيار :

اختلف الاستنفار في جيوش الدويلات الإسلامية في عصر التفكك والانهيار عن نظيره في صدر الإسلام والعصرين الأموي والعباسي في كثير من الأمور ، وأول تلك الاختلافات أنه باستثناء الاستنفار لدفع التعديات الخارجية والعدوان على أجزاء الأمة ، لم يكن لذلك الاستنفار ما يبرره من الوجهة الشرعية ، إذ كان الهدف من الجيوش — كما سبق الإيضاح — الصراعات الداخلية على الحكم أو الصراعات بين الدويلات الإسلامية لتحقيق مآرب شخصية ، أما ثاني تلك الاختلافات أن معظم جيوش الدويلات الإسلامية كانت تتألف من مرتزقة ومأجورين لا يحتاجون إلي استنفار أو تحفيز ، بل تجمّعهم العطاءات والرواتب التي يتحصلون عليها من قبل الحاكم أو الأسرة الحاكمة التي يصارعون لمصلحتها ، وثالث تلك الاختلافات أن كثيراً من أبناء الولايات الإسلامية لم يستحلوا الجهاد في صفوف تلك الجيوش، إلا في حالة الصراع العضوي مع قوى خارجية مثل الحروب الصليبية أو الحرب ضد المغول ، وإلي مزيد من الإيضاح فيما يتعلق بالاستنفار في الجيوش الإسلامية في فترة التفكك والانهيار :

### ❖ المرتزقة والمأجورون قوام الجيوش الإسلامية :

اعتمدت معظم جيوش الدويلات الإسلامية في فترة التفكك والانهيار على المرتزقة والمأجورين. الذين تم استجلابهم لمباشرة الصراع العضوي في تلك الجيوش لمصلحة الحكام والأسر الحاكمة ، فالفاطميون في مصر كانت عناصر جيشهم مكونة من المغاربة من قبائل

البربر وعبيد الشراء السودانيين والأتراك والعرب والأرمن والأكراد والديلم والروم والفرنجة والصقالبة . وفي عهد الأيوبيين قضى صلاح الدين الأيوبي على هذه التركيبة البشرية العجيبة، وأسس جيشاً جديداً كان قوامه الأكراد والأتراك والعرب . أما المماليك فقد اعتمدوا في جيشهم على الرقيق من الأتراك والجركس في الجهاد ضد المغول . ثم ضد الحملات الصليبية التي استهدفت مصر والشام .

وهكذا لم تكن هذه الجيوش المكونة من المرتزقة والمأجورين في حاجة إلي استنفار . فقد كانت حرفة هؤلاء هي الحرب مع الطرف الذي يحدده الحاكم .

### ❖ التجنيد الإجباري عند اللزوم :

لجأت بعض الجيوش الإسلامية في فترة التفكك والانهيار إلي التجنيد الإجباري عند خوض الصراعات مع الولايات الأخرى . أو عند الجهاد ضد قوى خارجية . وكان ذلك يمثل ظرفاً اضطرارياً . حيث يضطر الحاكم إلي فرضه أمام الضغوط المتمثلة في قلة عدد الجيش مقارنة بالجيش المقابل . أو احتدام الصراعات واستحكام الأمور بشكل يصعب معه استجلاب المرتزقة والمأجورين .

### ❖ الدعوة إلي الجهاد :

في حالات كان الحكام يدعون فيها للجهاد كوسيلة من وسائل الاستنفار . وأهم تلك الحالات الصراع العضوي ضد قوى خارجية معتدية مثل المغول والصليبيين . وكانت دعوة الجهاد في هذه الحالة تلقى قبولاً واستحسانا من كافة فئات المجتمع الإسلامي . كما كانت أداة فعالة في استنفار أفراد المجتمع وتكوين الجيوش . وكانت هناك حالات الصراع العضوي ضد ولايات أخرى داخل نطاق الدولة الإسلامية . وهذه الحالة قلما كانت تجد من أفراد المجتمع آذاناً صاغية . بل كثيراً ما كانت تقابل بالنفور والإعراض

. أما حالات الصراعات الداخلية فلم يكن يُلجأ بعددها إلي الدعوة إلي الجهاد ، بل كان المنبع هو شحن الأنصار والمشايعين . واستجلاب المرتزقة والمأجورين . أما الدعوة العامة للجهاد فلم تكن محل نظر في هذه الحالة .

❖ البعد التنظيمي :

في فترة التفكك والانهيار كانت معسكرات الجيوش قد باتت أمراً مألوفاً ، حيث يتجمع فيها الجنود الذين تم استجلابهم من المرتزقة والمأجورين . وكذلك من أبناء الولاية إذا كانت هناك دعوة للجهاد ضد عدوان خارجي . ومن خلال هذه المعسكرات يتم توزيع الأفراد حسب نوعية السلاح ، حيث يُشرع بعد ذلك في عمليات التدريب التي يتم على أثرها توزيع المقاتلين على المواقع المعينة ، أو يتم تحريك الجيش بالكامل للاقاة العدو في موقع تم تحديده حسب الخطة العامة للقتال [ الاستراتيجية ] .

❖ البعد العقيدي والنفسي :

لا مجال للحديث عن البعد العقيدي أو النفسي فيما يتعلق بالجيوش الإسلامية التي كان قوامها المرتزقة والمأجورين ، فهؤلاء المقاتلون كانوا يؤدون القتال كحرفة أو مهنة ، ولا يفيد في تهيأتهم أو تحفيزهم عقيدة أو معنويات ، بل إن حافزهم للإجادة في القتال كان زيادة العطاء أو مضاعفة الراتب .

أما في حالة الجهاد ضد المغول والصليبيين فكان الجنود المسلمون في حالة تحفز وحماس شديدين ، فهم سيجاهدون معتدين على الدين والوطن . وشعارهم الدفاع عن الإسلام وإعلاء شأنه . وكان ذلك كفيلاً بأن يرفع من روحهم المعنوية . ويقدمون على القتال بتفان وشجاعة . وقد سجلت الجيوش الإسلامية في مصر والشام والأندلس بطولات وملاحم رائعة في جهاد الصليبيين والمغول والفرنجة .

رابعاً : الأسطول في الجيوش الإسلامية :

في فترة التفكك والانهيار لا يمكن الحديث عن الأسطول في الدويلات الإسلامية كقوة حربية يعتد بها إلا في مصر والأندلس ، حيث احتكمت هاتان الولايتان على أسطول كان له شأنه في الدفاع عن سواحلها ، ويمكن تفصيل ذلك من خلال الآتي :

❖ أسطول مصر :

في زمن الطولونيين عمل أحمد بن طولون على تقوية القواعد والحصون الساحلية ، واهتم بإنشاء دور صناعة السفن في جزيرة الروضة حتى بلغ عدد سفنه مائة سفينة زادت في عهد ابنه خمارويه .

وفي عهد الإخشيد نقل دار صناعة السفن من جزيرة الروضة إلي دار امرأة أحمد بن طولون على ساحل الفسطاط على النيل في عام ٣٢٥ هـ . بعد أن تعرضت للتدمير على أيدي الجيوش المغربية ! .

وفي زمن الفاطميين ازداد الاهتمام بالأسطول ، وحرصوا على التصدي للهجمات البيزنطية التي استهدفت السواحل المصرية ، ونشط الاتصال البحري والتعاون بين أساطيل بلاد الشام ومصر من جهة والمغرب وصقلية من جهة أخرى ، وخصص الفاطميون للأسطول ديوان عُرف بديوان الجهاد أو العمائر .

تابع الفاطميون اهتمامهم بالأسطول فأنشأوا داراً لبناء السفن في كل من الفسطاط والإسكندرية ودمياط . وبلغ عدد العاملين بالأسطول حوالي خمسة آلاف رجل بين مقاتل وعامل . على رأسهم أمير الأسطول . وعشرة من الأعيان يساعدون الأمير كقواد .

وصل عدد قطع الأسطول الفاطمي في أوج قوته إلي ٦٠٠ قطعة بحرية من مختلف الأنواع . من الشواني والمسطحات والحمالات والمراكب النيلية ، ثم اخذ في التناقص إلي أن وصل في أواخر عهد الأسرة الفاطمية إلي ثمانين شونة وعشر مسطحات وعشر حمالات . وكان ذلك مؤشراً إلي ضعف الدولة وضعف جيشها عموماً .

وفي العصر الأيوبي استمر الاهتمام بالأسطول واصبح يسمى ديوان الأسطول . وعرف قائده بصاحب الأسطول . وكان الأسطول في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي هو أسطول مصر والشام . وقد أمر صاحب الأسطول ألا يبارح البحر ، وكتب إلي جميع عماله في مصر والشام بتلبية طلباته وطاعته ، ورصد له الأموال من مصادر مختلفة بلغت ٥٨ آلف دينار . وبعد رحيل الناصر صلاح الدين ارتبط الاهتمام بالأسطول في زمن الأيوبيين بمدى قوة أو ضعف الخطر الصليبي على السواحل الشامية والمصرية ، وقد أتضح ذلك في أيام السلطان الكامل وولده الصالح . حيث هاجم الصليبيون السواحل المصرية فكان الاهتمام بالأسطول وبتسليحه لحماية السواحل في مصر والشام .

وفي العصر المملوكي ازدادت أيضاً العناية بالأسطول في مصر والشام . وكان سبب ذلك أيضاً مواجهة الخطر الصليبي في البحر المتوسط وخصوصاً في جزيرة قبرص ، مما حدا بالسلطان الظاهر بيبرس لأن يصدر تعليماته بمنع الناس من التصرف بالأخشاب لاستعمالها في تعليح السفن في الإسكندرية ودمياط ، بالإضافة إلي دور صناعة السفن في الروضة والفسطاط .

كذلك حرص السلطان الأشراف خليل بن قلاوون المملوكي على بناء أسطول قوى ، احتفل بإتمامه في سنة ٦٩٢ هـ في الفسطاط . وكان يتكون من ٦٠ سفينة مجهزة بالجند والآلات الحربية ، وكذلك اهتم أخوه السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالبحرية . حيث انتهي من انشاء أسطول قوى في دار صناعة السفن في الفسطاط عام ٧٠٢ هـ .

وكانت العناية بالأسطول في عهد المماليك قد وصلت إلي قمتها في أيام السلطان الأشراف شعبان سنة ٧٦٧ هـ ، بعد أن تعرضت الإسكندرية لغارة من ملك قبرص فأنزل بها الدمار ، فأسرعت دور صناعة السفن في مصر ببناء مائة سفينة في عام واحد . بعدها هاجم المماليك قبرص ثلاث مرات في عهد السلطان الأشراف برسباي ، حتى احتلوها في عام ٨٢٩ هـ ، وحمل ملكها أسيراً إلي مصر وتبعت الجزيرة مصر .

وفي نهاية القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي لم تعد تجدي عناية المماليك بالأسطول تلك التي بذلها السلطان قانصوه الغوري . حيث بات يواجه خطرين في آن واحد ، خطر الأسطول العثماني الذي سيطر على البحر المتوسط وخطر الأسطول البرتغالي في المحيط الهندي ، وانتهي الأمر بانتصار العثمانيين على المماليك في مصر سنة ٩٢٣ هـ – ١٥١٧ م في موقعة الريدانية في عهد السلطان سليم الأول .

### ❖ الأسطول الأموي في الأندلس :

كذلك اهتم الأمويون في الأندلس بالأسطول حيث أنشأوا دوراً لصناعة السفن منذ أيام الأمير الحكم الربضي . وزاد ذلك الاهتمام في عهد عبد الرحمن الأوسط ، وبصفة خاصة بعد أن تعرضت سواحل الأندلس في سنة ٢٢٩ هـ إلي الغزو النورمندي . فعمد عبد الرحمن الأوسط إلي تحصين السواحل ، وإحاطة مدينة اشبيلية بسور ، وأنشأ المراقب والمحارس على طول الساحل الغربي المطل على المحيط الأطلنطي وكلف عليه المقاتلين المرابطين ، كما أنشأ عبد الرحمن الأوسط دارا لصناعة السفن في اشبيلية سنة ٢٣٠ هـ وأخرى في جزيرة شلطيش وثالثة في مدينة قرمونة ، حتى وصل عدد السفن إلي ٣٠٠ سفينة اشتركت في غزو جزيرتي ميورقة ومنورقة سنة ٢٣٤ هـ ، ولما توفى عبد الرحمن الأوسط زاد ابنه محمد بن عبد الرحمن ما مقداره سبعمائة سفينة .

بالرغم مما تقدم يعتبر عبد الرحمن الناصر هو المؤسس الحقيقي للأسطول الأموي في الأندلس ، حيث أنشأ عدداً من دور صناعة السفن في مدن المرية وطرطوشة والجزيرة الخضراء ومالقا ودانية ومدينة الزهراء وغيرها ، وقد تخصصت هذه الدور في صناعة نوعيات معينة من السفن. بينما تخصصت دوراً أخرى في صناعة ما يلزمها من أسلحة ، ومع ذلك لم يتجاوز عدد سفن الأسطول في عهد عبد الرحمن الناصر ٢٠٠ سفينة تركزت في المرية للدفاع عن سواحل البحر المتوسط ، وفي اشبيلية للدفاع عن السواحل الغربية المطلة على المحيط الأطلنطي .

استمر الاهتمام بالأسطول الأندلسي في عصور المرابطين والموحدين ، وقد اشتهروا بعمارة الأساطيل ، وقد سبق أن أشرنا إلي أن الناصر صلاح الدين الأيوبي قد أرسل سنة ٥٨٦ هـ رسولا إلي أمير الموحدين يعقوب المنصور يطلب إعانة الأسطول الموحدي لمنع الصليبيين من مهاجمة سواحل الشام ، فبعث إليه بمائة وثمانين سفينة حربية لتأمين هذا الغرض ، ثم تراجعت البحرية في الأندلس وانحدر مستواها بسبب ضعف الدولة .

### ❖ قطع الأسطول الإسلامي :

اختلفت قطع الأسطول الإسلامي متوائمة مع البحار التي تعمل فيها . وقد كان ذلك يمثل بعداً حضاريا مهما ، إذ أنه يعبر عن أرقى درجات التعامل مع عناصر الوجود ومفردات الطبيعة بالتحوير والتكييف ، فقد كان شكل قطع الأسطول وطريقة بنائها يتواءم مع البحار التي ستستخدم فيها ، فسفن البحر المتوسط كانت ذات دفتين ، وتستخدم فيها المسامير الحديدية وذلك يتواءم مع حركة الرياح في المتوسط ، وعمق مياهه وخلوه من الشعاب المرجانية ، في حين لم يكن يستعمل المسمار الحديدي في سفن البحر الأحمر ، بل كانت ألواحها تُخاط بحبال من خيوط ونسيج القنبار . ويستخدم لتثبيتها مسامير

خشبية ، وذلك يقلل من احتمالات تحطمها في حالة ارتطامها بالصخور المرجانية الكثيفة في البحر الأحمر ، كما أن الحديد لم يكن متوفراً في هذه المناطق ، وأن ذلك يمنحها خاصية الرسو بأمان عند السواحل . وكان الأسطول الإسلامي منذ نشأته في عهد عثمان بن عفان وحتى نهاية فترة التفكك والانهيار يتكون من القطع البحرية التالية التي تطورت خلال هذه الحقبة بشكل ملحوظ :

- الشواني : ومفردها شيني أو شونة ، وهي عبارة عن مراكب كبيرة تعمل بمائة وأربعين مجدافاً . وكانت هذه السفن تعرف في بعض المناطق بالأغربة . حيث كانت تطلى بالقار لحماية أخشابها من التآكل ومنع الماء من التسرب . كذلك كانت تزود بأبراج وقلاع لأغراض الدفاع والهجوم . ومخازن ضخمة للغلال وصناديج لخزن الماء العذب والمؤن اللازمة للعاملين عليها .

- البُطْس أو البُطُش : ومفردها بطسة أو بطشة ، وهي عبارة عن سفينة كبيرة الحجم كذلك . وتتكون من عدة طوابق . وتتسع لما يقرب من سبعمائة مقاتل . وهي مركب شراعي تعمل بأربعين شراعا ، ونظرا لما تحمله من عدد كبير من الجنود ، فكانت تستعمل في الهجوم . وكذا في الإنزال على السواحل وفي الثغور .

- الحرابق : مفردها حُراقة ، وهي عبارة عن مركب متوسط الحجم . تتسع لحوالي مائة مقاتل وتعمل بالمجاديف التي تصل إلى مائة مجداف . وقد أشتهر عن هذه المراكب أن بها مرامي لقذف اللهب أو كرات النفط المشتعلة ، وكانت هذه السفن تستعمل في مهاجمة القطع المعادية أو مهاجمة الحصون أو القلاع التي على السواحل وفي الثغور .

- المسطحات : مفردها مسطح ، وهي عبارة عن سفن ضخمة كبيرة الحجم تعمل بالمجاديف ، حيث يكون المجدفون في الأسفل والمقاتلون من أعلى ، وعرفت في الأندلس

بالمراكب الحمّالة، حيث كانت تستعمل في حمل الجنود المجهزين للقتال والالتحام مع القطع المعادية .

- الشلنديات : مفردها شلندي ، وهي عبارة عن سفن كبيرة الحجم ، تشبه المسطحات، ولكنها كانت تستخدم لأغراض النقل فقط ، وكانت تعمل بالمجاديف .

- الطرائد أو الطرّادات : ومفردها طريدة أو طرّاد . تمثلت مهمتها في الشرق الإسلامي في نقل الخيل والمقاتلين والمؤن والسلاح . وكانت مفتوحة من الخلف حتى يتسنى للخيل الدخول والخروج . وكانت تسع في المعتاد حوالي أربعين فرساً . أما في الأندلس والمغرب فقد تمثلت مهمتها في مطاردة سفن العدو . ومن ثم اكتسبت اسمها ، وكانت برميلية الشكل ، وتتميز بالسرعة ، حتى تتمكن من القيام بمهامها القتالية .

- الأغربة : واحدها غراب . وهي مركب سريعة ، اكتسبت إسمها من شكلها ، حيث كانت مقدمتها تشبه رأس الغراب وتطلى بالقار ، وكانت تستعمل في العمليات الهجومية السريعة بما لديها من قدرة على المناورة .

- البراكيس أو البراكيش : واحدها بركوس أو بركوش ، وهي عبارة عن مراكب صغيرة الحجم ، كانت تستخدم في نقل المياه العذبة . وقد استخدمت في النقل عموما . وسعتها لا تتجاوز خمسة وعشرين رجلاً .

### ❖ أسلحة الأسطول الإسلامي :

التسليح الفردي لمقاتل البحر لا تختلف عن نظيره عند مقاتل البر ، إلا أن هناك بعض الاختلاف فيما يتعلق ببعض أسلحة الاستخدام العام الذي يلائم بيئة البحر ، ونذكر من ذلك ما يلي :

– الكلاليب : جمع كلاّبة ، وهي نوع من الخطاطيف الحديدية القوية ، تنتهي بها سلاسل متينة. تستخدم لجذب مراكب العدو ، حتى يسهل الالتحام معها . والعبور إليها بواسطة سلالم أو ألواح خشبية . ومن ثم يبدأ القتال .

– الباسليقات : واحدتها باسليقة . وهي عبارة عن سلاسل حديدية تنتهي برؤوس رمانية الشكل من الحديد أيضاً . وتستخدم في القتال الالتحامي .

– التوابيت : وهي بمثابة صناديق خشبية مفتوحة من أعلاها . تكون بمثابة خنادق مفتوحة من أعلاها ، يختفي فيها المقاتلون . وتنصب أعلى صواري السفن . ويحتفظ فيها الجند بالحجارة والنفط والنوره وبعض الحشرات لرميها على العدو .

– اللجام : وهي قضيب حديدية تشبه الرمح ، تستخدم في تهشيم سفن الأعداء وإحداث الثقوب بها حتى يتسرب إليها الماء فتغرق

– وسائل الحماية والتمويه : استخدم المسلمون وسائل عديدة لحماية سفنهم من الحريق ، فكانت تُلَف بقطع اللبّود [ اللبّاد ] المبللة بالخل والماء أو الخل الممزوج بالشب والنطرون ، وفي أحيان أخرى تُطلى بالطين المعجون بالنطرون ، كذلك كانت الصواري تلون باللون الأزرق فتختلط مع لون الماء ، مما يعطى السفن القدرة على الاختفاء والتمويه والتمكن من المباغته والهجوم المفاجئ

## خامساً : تمويل الجيوش الإسلامية في عصور التفكك والانهيار :

كانت المؤسسة العسكرية في الدويلات الإسلامية في فترة التفكك والانهيار ذات ثقل وكلفة مادية تتواءم مع أهميتها وحيوية وجودها في تلك الدويلات . فالجيوش ازدادت أهميتها انطلاقاً من دورها في الحفاظ على وجود تلك الدويلات . وأيضاً في الدفاع عن أجزاء الدولة

الإسلامية عند الضرورة . فماذا عن تمويل تلك الجيوش وعن رواتب الجند ، وكيف يتم تدبير المخصصات المالية لمواجهة تلك النفقات ؟ :

❖ موارد الدولة :

اختلفت موارد الدويلات الإسلامية حسب القاعدة الاقتصادية التي يعتمد عليها اقتصاد كل دويلة من هذه الدويلات ، وتراوحت تلك الاقتصادات بين الزراعية والرعوية والتجارية . إلي جانب ذلك كانت الضرائب تمثل مورداً مهماً من موارد الدويلات الإسلامية ، وقد خُصصت للمؤسسة العسكرية نسبة لا يُستهان بها من الموارد العامة . وفي وقت الحروب أو الصراعات كانت تفرض الضرائب لتمويل تلك الحروب والصراعات ، ودائما ما كان المجتمع الإسلامي يعاني من ويلات ذلك ، ولكنه لم يكن يأبه بالمصاعب المالية إذا كان الجهاد في مواجهة عدوان خارجي على أجزاء الأمة .

❖ المساعدات بين الدول الإسلامية :

بالرغم من الصراعات التي كانت مألوفة بين الكثير من الدويلات الإسلامية ، إلا أنه في حالة الجهاد ضد اعتداءات خارجية على أجزاء الأمة ، كانت المساعدات تتقاطر على الأجزاء التي وقعت عليها الاعتداءات وتأخذ أشكالا عديدة ومتنوعة ، فتتحرك الجيوش البرية والبحرية قاصدة الجهاد في سبيل الحفاظ على وحدة كيان الأمة ، وترسل الإمدادات من مؤن وذخائر وأسلحة ، والمتابع لتاريخ الدولة الإسلامية سيجد أن ما كان يحدث من تعاون بين الدويلات الإسلامية في حالة وقوع اعتداء على إحداها فيما نسميه بعصور التدهور أو التفكك والانهيار كان أفضل بكثير مما يحدث في وقتنا الراهن !! .

❖ رواتب الجند :

كانت رواتب الجند في عصور التفكك والانهيار أعلى من مثيلاتها في صدر الإسلام وفي العصرين الأموي والعباسي ، ويرجع سبب ذلك إلي رغبة الحكام في إغراء الجند حتى يقبلوا الاستمرار في الخدمة لتحقيق أهدافهم ، لأن معظم أفراد تلك الجيوش كانت من المرتزقة والمأجورين

سادساً : تسليح وتدريب الجيوش الإسلامية وقيادتها وتشكيلها :

مما لا شك فيه أن العلاقة واضحة بين طبيعة الجيوش وبين أهدافها ومقاصدها وكذا تسليحها وتدريبها وتشكيلها وقيادتها . فالجيوش في صدر الإسلام كانت أهدافها ومقاصدها واضحة ومحددة ، وانعكس ذلك على تدريبها وتشكيلها وقيادتها ، كما أن تسليحها لم يكن محل مبالغة أو تهويل لأن العقيدة والإيمان كانا يملئان النفوس ويشحذا العزائم ، وفي فترة التفكك والانهيار اختلفت الأوضاع ، فالجيوش في معظمها قوامها المرتزقة والمأجورون . وأهدافها إدارة الصراع العصوي بين التحزبات الداخلية أو بين الولايات ، وقليل منها ما استهدف الجهاد ومدافعة المعتدين على الدين والحمى ، وسلاحها لم يكن إلا السلاح المادي . أما العقيدة والإيمان فلم يكن يُعوّل عليهما ولا يُستحضرا إلا عند الصراعات مع غير المسلمين ، وفي عجالة نقف على تسليح الجيوش الإسلامية وتدريبها وقيادتها في فترة التفكك والانهيار :

❖ تسليح الجيوش الإسلامية :

تطورت أسلحة الجيوش الإسلامية في فترة التفكك والانهيار نتيجة صراعاتها الداخلية ، وكذا صراعاتها بين الولايات ، ثم الصراعات مع الجيوش ذات الطبيعة الأممية مثل الجيوش البيزنطية والصليبية والمغولية ، ومن ثم يمكن الخلوص إلي أن أسلحة الجيوش

الإسلامية قد مرت بتطورين : الأول ، تطوير الأسلحة التقليدية المتعارف عليها لزيادة فعاليتها وتحسين نتائجها ، الثاني ، ادخل أسلحة جديدة ، وبصفة خاصة فيما يتعلق بأسلحة الاستخدام الجماعي ، سواء أكانت الهجومية منها أو الدفاعية ، والتطور الأخير قد أدخلته الجيوش الإسلامية نتيجة احتكاكها بالجيوش غير الإسلامية .

وتم إنفاذ هذين التطورين عبر إقامة عملية تصنيع للسلاح واسعة النطاق ، عمت معظم الدويلات الإسلامية في مصر والشام والمغرب والأندلس وكذا في المشرق الإسلامي ، فانتشرت مصانع السلاح بكافة أنواعه المخصص لجيوش البر وجيوش البحر ، والفردية والجماعية ، والدفاعية والهجومية ، وابتكرت أنواع جديدة من الأسلحة مثل الأسلحة الكيميائية .

❖ **تدريب الجيش وقيادته :**

أما عن تدريب الجيوش الإسلامية وتشكيلها وقيادتها ، فقد شهدت هي الأخرى تطورات حاسمة ، وبصفة خاصة فيما يتعلق بالصراعات ذات الطبيعة الأممية التي خاضتها تلك الجيوش مع البيزنطيين والصليبيين والمغول ، ونتناول ذلك فيما يلي :

- تدريب الجيش .

في عصور التفكك والانهيار شهدت عملية تدريب الجيوش تطوراً غير مسبوق ، حيث خُصصت معسكرات للتدريب ، وأوقات محددة لذلك ، وأُستجلب المدربون على الأنواع المختلفة للأسلحة وفنون القتال وأساليبه ، وبرز اهتمام غير معتاد بالخطة العامة للمعركة أو ما يعرف بالاستراتيجية ، وكذا إدارة العمليات الحربية الميدانية أو ما يعرف بالتكتيك ، وأيضاً عمليات الإمداد والتموين أو ما يعرف باللوجستيك ، ووضع كل هذا موضع التطبيق في معارك حربية ومواقع صراعية مشهورة مثل حطين ومعركة عين جالوت .

- تشكيل الجيوش :

تعددت تشكيلات الجيوش الإسلامية في فترة التفكك والانهيار واختلفت من جيش لآخر ، فمثلاً قسم الفاطميون جيشهم كالتالي : رتبة المطوق وهو قائد لألف جندي ، ثم رتبة أمير القضيب ويقود مائة جندي . أما المماليك فقد قسموا جيشهم إلي أربعة تشكيلات ورتب : التشكيل الأول : المئين أو مقدمو الألوف وهي رتبة يتبعها تشكيل مكون من مائة فارس ، التشكيل الثاني : أمراء الأربعين أو الطبلخانات وهي رتبة يتبعها تشكيل مكون من أربعين مقاتل ، التشكيل الثالث : أمراء العشرات وهي رتبة يتبعها تشكيل مكون من عشر فرسان ، التشكيل الرابع : أمراء الخمساوات وهي رتبة يتبعها تشكيل مكون من خمس رجال . وهكذا اختلفت الرتب وكذا التشكيلات التابعة لها من جيش لآخر .

- قيادة الجيوش الإسلامية :

عهدت فترة التفكك والانهيار ظهور قيادات عسكرية نادرة قادت الجيوش الإسلامية إلي النصر ، واحتكمت على أدمغة فذة في فنون القتال واستراتيجيات الحرب ، وما ألف عن الصراعات العضوية والمواقع الحربية المشهورة في تلك الفترة أن الولاة كانوا يقودون الجيوش بأنفسهم ، ويكونون في مقدمة الجيش وهم فرسان من الطراز الأول ، وكان ذلك هو دأب الناصر صلاح الدين الأيوبي وسيف الدين قطز والظاهر بيبرس في أعنف وأكثر المعارك التي خاضتها الجيوش الإسلامية ذيوعا في التاريخ .

وكانت القيادة في تلك الجيوش وبالذات التي كانت تحت إمرة القواد المذكورين تعد المثال والنموذج ، فكانت القيادة تبدأ من الاهتمام بأول مراحل وخطوات تأسيس الجيش ، وهي مرحلة استنفار أو استجلاب المقاتلين وانتقائهم بعناية ، وتعيين الرتب والقيادات الفرعية ، ثم الإشراف على الإعداد والتدريب البدني ، والتوجيه المعنوي ، والشحن العقيدي

والنفسي، وتشكيل الجيش وتقسيمه . ويستتبع ذلك الاهتمام براحة المقاتل وتوفير احتياجاته وتلبية متطلباته المادية والمعنوية .

وكانت المرحلة الثانية في القيادة هي ترسيخ هدف الجيش من المعركة ومقصده من القتال في نفوس أفراده . وتزكية البعد العقيدي ونشر الحب والإخاء والتعاضد بين المقاتلين .

وكانت المرحلة الثالثة هي إشراك القيادات الوسطى أو التنفيذية في صياغة الخطة العامة للمعركة ، والاتفاق والتشاور بخصوصها والخلوص إلي اتفاق عام .

وكانت المرحلة الرابعة هي التواجد الفعلي في ميدان القتال ومباشرته كنموذج ومثال وقدوة للمقاتلين . والإشراف المباشر على المعركة وإدارتها وهو ما يعرف بفن إدارة المعارك أو التكتيك ، ومن ثم كتب لتلك القيادات أن تقود جيوشها إلي النصر .

## المبحث الثالث

## الجيوش الإسلامية والحضارة الإسلامية في فترة التفكك والانهيار

كان الجيش ولا يزال أحد أهم مقومات الحضارة الإنسانية . وكان الجيش كذلك بالنسبة للحضارة الإسلامية في صدر الإسلام . وكان قريباً من ذلك في العصر العباسي ، وكان أكثر اقترابا في العصر الأموي ، أما في عصور التفكك والانهيار فقد بات الجيش أكثر ابتعاداً من أن يكون أحد مقومات الحضارة الإسلامية .

لقد كان الجيش للحضارة الإسلامية في صدر الإسلام هو خط دفاعها الأول وخط هجومها الأخير ، لأنها لم تكن أبداً حضارة مهاجمة بل حضارة متحاورة تأخذ وتعطى ، لقد كان للجيش أهميته في الحضارة الإسلامية في صدر الإسلام كأداة فعالة لحمل الدعوة ونقلها وتوصيلها إلي الأمم والشعوب ، والدعوة هي مخ الحضارة وأول منطلقاتها واهم مقوماتها ، ولقد شهد ذلك الدور للجيش الإسلامي في صدر الإسلام وفي العصر الأموي ازدهاراً وإيناعاً لم يشهده بعد ذلك ، ثم انحسر وتراجع بحدة في العصر العباسي ، وانتهى في عصور التفكك والانهيار ، فلم يعد من المنطقي الحديث عن دور الجيش في حمل الدعوة ونقلها وتوصيلها في تلك العصور المظلمة من تاريخ الأمة الإسلامية ، ومن ثم يمكن الانتهاء إلي أن الجيش في عصور التفكك والانهيار قد فقد أهم عناصر وجوده ودوره في الحضارة الإسلامية .

إلي جانب ما تقدم كان الجيش هو المدافع الأساس عن الحضارة الإسلامية على مدى فترات التاريخ الإسلامي ، ابتداءً من نشأة دولة الرسول الكريم في المدينة المنورة وحتى نهاية العصر العباسي الأول ، لقد أفلح الجيش طيلة هذا الزمن في الذود عن الحضارة الإسلامية بكافة أشكالها ونماذجها النظامية والتنظيمية ، إلا أنه مع مقدمات وبوادر

عصور التفكك والانهيار شرع في النكوص والتراجع عن القيام بهذا الدور كما كان عليه الحال من قبل . وكان تجسيد ذلك في الحملات الصليبية التي شكلت أول الاختراقات والتعديات على حمى الأمة . والتي تم دفعها وإبراء جسد الأمة منها بشق الأنفس ، ثم كان الانهيار النهائي عندما تخلى الجيش الإسلامي عن هذا الدور بشكل مهين أمام الجمع التتري الكاسح . ولم يلبث أن تماسك الجيش الإسلامي ودحر ذلك المارد المدمر وأنهى وجوده النظامي في عين جالوت ، وظل الجيش الإسلامي يتمسك بذلك الدور ، إلا أنه أعلن عن إفلاسه وتراجعه مرة أخرى في مشهد دراماتيكي مأسوي عندما أسلم آخر مقاليد وجود الإسلام في أوربا الغربية . وقفل من حيث انبعث ، وانتهي وجود الإسلام والحضارة الإسلامية في الأندلس إلي الأبد .

صفوة القول أن ثمة محورين للعلاقة بين الحضارة الإسلامية والجيش ، الأول يتمثل في حمل ونقل وتوصيل الدعوة وعلى هذا المحور لم يكن للجيش الإسلامي في عصور التفكك والانهيار أي إسهام يذكر ، الثاني يتجسد في الدفاع عن الحضارة الإسلامية وعلى هذا المحور تذبذب دور الجيش الإسلامي خلال تلك العصور بين المحاولات الجادة المستميتة في القيام بعمليات الدفاع وبين الإخفاق الذي أسفر عن نتائج مفزعة .